# مع عالم صوفي

للدكتور محمد كامل الفقي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

لحظات خالدة عشتها مع البطل الكريم عند ربه سيدى «عبد القادر الجيلى». حلقت روحي في سمائه ، ونعمت تأملاتي في تاريخه النضير ، انه الثمرة اليانعة التي ارتوت في بيت النبوة الطاهر ، انه المنتهى في نسبه الى سيدنا على كرم الله وجهه ، الصاعد في أرومته الى سيد الخلق أجمعين .

ولد رضي الله عنه سنة سبعين وأربعمائة ، وبعد تسعين سنة أمضاها في سمت الولى ، وسيرة الزاهد ، وخلق العابد ، استأثر الله به ، وثوى ببغداد.

لقد شعرت وأنا مع سيرته ، وفي دراسته ، أني سعيد النفس ، قرير العين وكان لى أوعظ من العلم الذى عشت له ، والمرشد الذى أدمن الاستماع اليه ، في المسجد والحفل والمذياع جميعا .

بل لقد أحسست أن الغفلة عن حياة أمثاله والاهتداء بها حماقة وضلال، وما أحوج الذين تخدعهم ظواهر الحياة ، وتفتنهم مباهج الدنيا الى الحكم يتلقونها عنه وعن أقرانه لتردهم الى الرشد بعد الغى ، وتهتك ما بينهم وبين الله من حجاب .

ان سيدى « عبد الوهاب الشعرانى » يجد في تاريخ « الجيلى » ما دفع المؤلفين الى التوفر عليه ، وهو يوجز في « طبقاته » ما أسهب فيه المؤلفون ليكون فيه للناس « نفع وتأديب » .

انه يحدث أنه ولد من أم صالحة ، كان لها قدم في الطريق ، وأنها لما وضعته كان لا يرضع ثديها في نهار رمضان ، وأن العلام غم على الناس فأتوها وسألوها عنه فقالت لهم : انه لم يلتقم ثديها اليوم . ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من رمضان ، واشتهر في ذلك الوقت انه ولد للاشراف ولد لا يرضع في نهار رمضان .

ولست من القوم الذين يجحـــدون فضل الله على أوليائه ، فكم لهم من كرامات تبهر العيون ان « أبا صالح عبد القادر الجيلى » ملك نفسه وأخذها بالزهد الزاهد ، وردها عن متاع الحياة وزخرفها ، انه كان يقول : قاسيت الأهوال فى بدايتى فما تركت هولا الا ركبته ، وكان لباسى جبة صوف ، وكنت أمشى حافيا فى الشوك وفى غيره ، وكنت أقتات الشوك وقمامة البقل وورق الخس من شاطىء النهر ، ولم أزل آخذ نفسى بالمجـــاهدات حتى طرقنى من الله تعالى « الحـال » فاذا طرقنى صرخت وهمت عـلى وجهى ، وكنت أتظاهر بالتخارس والجنون وحملت الى البيمارستان .

ان له لحكما أنتزعها من سمو روحه واشراق قلبه ، قيل له كيف الخلاص من العجب ؟ فقال : « من رأى الأشياء من الله وأنه هو الذى وفقه لعمل الخـير فقد سلم من العجب » فالذين يعجبـون بما يفعلون – وهو قليل – ويزهون بما يأتون – وهو ضئيل – وينفون عن غيرهم الاحســان اليهم – ويحسبون أنهم يحسنون صنعا هم الغارقون فى العجب والتيه ، السابحون فى بحر الضلال ، الأخسرون أعمالا ..

كان « الجيلى » متملأ من التفســـير والحديث ، متمكنا من الأصـول والنحو ، وكان يقرأ القراءات ، ويفتى على مذهب الشافعى وأحمد ، وكانت فتاواه تستثير اعجاب العلماء بالعراق ويقولون : سبحان من أنعم عليه .

لقد صفع « الجيلى » الأدعياء الذين يزعمون الهمة لأنفسهم وليسوا منها على شىء ، فالهمة فى رأيه « أن يتعرى العبد بنفسه عن حب الدنيا ، وبروحه عن التعلق بالعقبى ، وبقلبه عن ارادته مع ارادة المولى ، ويتجرد بسره عن أن يلمح الكون أو يخطر بسره » .

ولم أستطع الا ترديد هذه العبارة المفصحة المعبرة عن الدنيا اذ قال حين سئل عنها « اخرجها من قلبك الى يدك فانها لا تضرك »

ان بعض الصوفية يقول بصدد طريقته ، انهـــا اتحاد القول والفعل ،

ومعانقة الاخلاص والتسليم ، وموافقة الكتاب والسنة فى كل نفس وخطرة، والثبوت مع الله عز وجل .

وان قوة الشيخ فى طريقه الى ربه كانت كقوى جميع أهل الطريق شدة ولزوما .

لقد عرف من أخلاقه أنه لم يقم لعظيم قط ، وأنه لم يلم بباب وزير أو سلطان ولقد أتاه الخليفة يوما يريد الاجتماع به فلم يتيسر له الى الفجر .

انه يحدث عن نفسه بأنه أقام فى صحراء العراق وخرائبه خمسا وعشرين عاما مجردا هائما لا يعرف الخلق ولا يعرفونه ، تأتيه طوائف من رجال الغيب والجان يعلمهم الطريق الى الله .

ان « عبد القادر الجيلى » رسم الطريق لأصحابه ومريديه ، بل لعله سن الصوفية المثلى لأتباعها والناهضين بها كى لا يضلوا أبدا .. انه قال لهم : اتبعوا ولا تبتدعوا . وأطيعوا ولا تخالفوا . واصبروا ولا تجزعوا . واثبتوا ولا تتمزقوا وانتظروا ولا تيأسوا . واجتمعوا على الذكر ولا تتفرقوا . وتطهروا عن الذنوب ولا تبرحوا باب مولاكم ..

أرأيت منهجا أقوم وأحكم من هذا الذى رسمه للصوفية والمريدين فحسى أن تنفتح على هذه الهداية أعين الصوفيين ليكون القدوة دائما ..

ثم أرأيت الى هذا القول الذى تسكن اليه قلوب الحائرين المتوثبين ، والطامحين والمقروحين ، والذين يجدون الجاه والنعمى عند من هم دونهم عقلا وموهبة ؟ انهم يجدون الروح والريحان حين يستمعون اليه وهو يقول :

لا تختر جلب النعماء ، ولا دفع البلوى ، فان النعماء واصلة اليك بالقسمة استجلبتها أم كرهتها ، والبلوى حالة بك ولو كرهتها ودفعتها ، فسلم لله فى الكل يفعل ما يشاء ، فان جاءتك النعماء فاشتغل بالذكر والشكر ، وان

جاءتك البلوى فاشتغل بالصبر والموافقة ، واحذر أن تشكو لله وأنت معافى وعندك نعمة ما طلبا للزيادة ، وتعاميا لما له عندك من النعمة والعافية ازدراء بهـــا ، فربما غضب عليك وأزالها عنك . وحقق شـــكواك ، وضاعف بلاءك ..

وجميل منه وصفه للذين يسألون الناس من دون الله ، وينصرفون الى غير بابه ..

فما سأل أحد غير الله تعالى الا لجهله بالله وضعف ايمانه ومعرفته ويقينه وقلة صبره ، وما تعفف من تعفف عن ذلك الا لوفور علمه بالله عز وجل ، ووفور ايمانه وحيائه منه سبحانه .

اللهم اهدنا كما هديته ، ونسألك أن تجعل لك حبنا ، كمـــا تجعـــل فى طاعتك قرة أعيننا ، وسعادة أنفسنا .

محمد كامل الفقى

## آل البيت

روى الامام أحمد فى مسنـــده عن العبـــاس بن عبد المطلب قال : قلت يارسول الله ان قريشا اذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حســـن . واذا لقونا ، لقونا بوجوه لا تعرفها قال : فغضب النبى صلى الله عليه وســـلم غضبا شديدا وقال : والذى نفسى بيده . لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبكم لله ولرسوله » .. وفى رواية أخـــرى : والله لا يدخل قلب امرىء ايمان حتى يحبكم لله ولقرابتى .